# من برلين الى بيروت

## ادمون صعب

مشى الأمير الصغير في الصحراء، ولم يصادف في طريقه سوى زهرة. زهرة من ثلاث بتلات، زهرة لا قيمة لها... فبادر الأمير الزهرة: "صباح الخير". فأجابت: "أسعدت صباحا". ثم سألها الأمير الصغير بمنتهى اللطف: "هل تعرفين أيـــن حط الرجال رحالهم؟" وكانت الزهرة شاهدت ذات يوم قافلة تمر بالمكان، فأجابت: -الرجال؟ كان هناك منهم، في اعتقادي، ستة أو سبعة. شاهدتهم قبل سنوات. ولكني فقدت أثرهم، ولا أعرف اطلاقا الاتجاه الذي سلكوه. فقد كانت الريح تتلاعـب بهم، إذ لم تكن لهم جذور في الارض، وكان هذا مبعث ضيق كبير لهم. "وداعا، قال الأمير الصغير للزهرة. "وداعا، والى اللقاء، أيها الأمير الصغير" ردت الزهرة. "الأمير الصغير" لانطوان دوسان اكزوبوري) طيار وأديـب فرنســي (١٩٠٠ – ١٩٤٤) كان عضوا في "حرب التحرير" قضى في رحلة طيران في ١٩٤٤/٧/٣١ خلال الحرب العالمية الثانية).

منذ الاحد الماضي وتسكنني صورة الولد الفلسطيني رامي جميل الدرة الذي حاول ووالده الاحتماء وراء برميل المياه فـي غزة من آلة الحرب الاسرائيلية الفتّاكة، متسلحين بالخوف من الا يحميهما صفيح البرميل، والدموع التي تدحرجت مـــن مقلتي الفتى وهو يسمع والده يتوسل الى الاسرائيليين ان يدعوا ابنه يعود الى حضن امه. الا ان الحرب هـــي الحـــرب، وليس لديها ما تقدمه الى رامي ووالده سوى الموت الذي عانقه رامي لتحيا فلسطين سيدة، حرة، مستقلة!

لقد سكنتني الصورة الفلسطينية لانها ايقظت في الذاكرة اللبنانية صورة مماثلة، صورة اللبناني الـــذي فاجأتـــه الحـــرب الفلسطينية على ارضه منذ عام ١٩٦٩، حين بدأ تسرب القوات الفلسطينية الموالية لسوريا الى لبنان، بعد اتفاق القـاهرة في ١٩٦٩/١١/١٣، ثم نزوح المقاتلين الفلسطينيين الذين نجوا من مذابح "ايلول الاسود" الاردني عام ١٩٧٠ الى لبنان، مما ادى الى تحول المخيمات معسكرات ومعاقل توزّعت النفوذ فيها منظمات موالية لكل الدول العربية تقريبا.

يومها صار مشهد اللبنانيين شبيهاً بمشهد الفتى الفلسطيني ووالده اللذين حاولا، وهما الاعزلان، الاحتماء من الرشاشات والبنادق والمدافع بصفيح برميل الماء. وكان لبنان في تلك الاثناء تحول ساحة لـ"حرب آخرين" دخلتها قوات من سـوريا واسرائيل. وصارت لهذه الساحة اهمية نظراً الى وجود المخيمات الفلسطينية فيها، وبعدما حاصرت الثورة الدولة.

ولو كنا في دول تحترم نفسها، لكنا استطعنا مثلاً، بعد مرور ٢٥ سنة على اندلاع نار الاحداث في لبنان، الوصـــول الـــى المحفوظات السرية في سوريا واسرائيل للاطلاع على حقيقة ما كان يجري، وعلى الادوار التي توزعها اللاعبون علـــى ارضنا الشهيدة التي تحاول اليوم قيادات روحية تخليصها من التبعية والهيمنة بعدما تخلى السياسيون والزمنيـــون عـــن ادوارهم وابدلوا ألسنتهم التي هي من لحم ودم بألسنة من خشب فقدت كل ذوق!

ويقول وزير الخارجية الاميركي السابق هنري كيسينجر في كتابه "سنوات التجدد"، ان الاميركيين لاحظوا ان الســـوريين يخططون لتوسيع نطاق النزاع في لبنان في حين يسعى المجتمع الدولي الى حل النزاعات بالتفاوض السلمي. وسجّلوا في هذا الاطار دخول وحدات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان في كانون الثاني ١٩٧٦ وهو "فصيل فلســـطيني تـــابع للجيش السوري"، بحسب كيسينجر. وقال الاخير ان رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين الذي كان في البيت الابيـــض في ٢٨ كانون الثاني حذر الرئيس الاميركي جيرالد فورد من ان "ادخال وحدات من الجيش السوري الى لبنان من شـــأنه دفع القوات الاسرائيلية الى احتلال منطقة تصل الى نهر الليطاني" على بعد قرابة ٣٥ كيلومترا الى الشمال مـــن الحـــدود الاسرائيلية – اللبنانية.

وعلى الفور وجه كيسينجر تعليمات الى السفير في دمشق ريتشارد مورفي بان ينقل الى رئيس اركان الجيش السوري اللواء حكمت الشهابي – وليس الى وزير الخارجية عبد الحليم خدام – "تمنيات الادارة الاميركية بان تبذل سوريا ما تستطيع لضمان وقف اطلاق النار وتحقيق تسوية سياسية"، واشار الى ان الاسرائيليين يعارضون دخول قوات فلسطينية تدعمها سوريا الى لبنان. إلا أن سوريا التي كانت أدخلت قوات الى لبنان، رغم المعارضة الاميركية والاسرائيلية، وجدت نفسها في نهاية الامر مضطرة الى دخول لبنان بعدما شعرت بـ خيانة "الذين دعمتهم بالسلاح والذخيرة لمقاتلة الفريق المسيحي ومنع "ضرب المقاومة وتقسيم لبنان". وكاد الزمام أن يفلت من يدها ويقع لبنان بين القبضتين الاسرائيلية والفلسطينية. وهو قال في هذا الصدد: "قدمنا السلاح من اجل وقف القتال. وفي وقت من الاوقات كانت موازين القوى غير متكافئة، فاضطررنا الى ان نقدم السلاح والذخائر (...) أخذنا السلاح من جنودنا، من تشكيلاتنا واعطيناها لهم". وقال لكمال جنبلاط في لقاء بينهما: "ساعدناكم عسكريا بامدادكم بالاسلحة والذخائر، ومع هذا لم تصمدوا، فدخلنا لبنان وغامرنا باحتمال مجابهة مع اسرائيل". فماذا كانت النتيجة؟ أجاب الاسد: قامت منظمة فتح وبعض الفصائل الاخرى وبعض الاحزاب التي تسمّي نفسها وطنية في لبنان بهجوم شامل ومخطط على مكاتب "الصاعقة" و"البعث" وجيش التحرير ومكاتب التنظيمات الاخرى الموالية لسوريا. وأشار الى ان المهاجمين "قتلوا من قتلوا من كل الفصائل التي ذكرت وهاجموا ايضا الجنود السوريين الذين دخلوا في وقت سابق لمساعدتهم. هاجموا هؤلاء الجنود بقسوة وحاولوا ان يسيئوا اليهم بكل ما يستطيعون (...) فأعطينا الاوامر لهؤلاء الجنود بأن يدافعوا عن انفسهم فقط (...) فضّلنا ان نتحمل الأذى، وان يتحمل جنودنا الأذى على ان ندمّر الآخرين ونقتلهم (...) ويبدو أحيانا ان الاساءات التي ارتكبوها بحق سوريا من خلال الاساءة الى الجنود السوريين لم يرتكبها أحد غيرهم. وكنا أرسلنا جنودنا قبل ثلاث سنوات للدفاع عن المخيمات في بيروت والجنوب وطرابلس. هؤلاء الجنود أسيء اليهم اساءة بالغة (...) وحتى في تل الزعتر هناك عدد من الجنود السوريين ما زالوا معتقلين حتى الآن هناك الا اذا كانوا قتلوهم".

في هذه الاجواء تقرر دخول القوات السورية الى لبنان، وما تطويق المدن والاستغاثات للانقاذ من "الافناء" او المساعدة سوى مبررات ثانوية للدخول. وقد أكد الرئيس حافظ الاسد اكثر من مرة ان "سوريا لا تتحرك بغير اقتناعاتها، ولن يستطيع احد ان يجرها الى اي موقع لا تريده".لهذه الاسباب قررت سوريا ارسال جيشها الى لبنان، وليس لأي سبب آخر، وهو لا يزال فيه منذ حزيران ١٩٧٦. وفيما كانت الولايات المتحدة واسرائيل تراقبان التحرك السوري في اتجاه لبنان في آذار ١٩٧٦، سأل كيسينجر رابين عن موقف اسرائيل في حال دخل السوريون لبنان، فاجاب في مذكرة مؤرخة ٢٣ آذار ان القوات الاسرائيلية ستحتل "بمقدار ما تستطيع من هدوء" مواقع استراتيجية في جنوب لبنان. و"في اليوم التالي، اضاف كيسينجر، تلقيت مذكرة اسرائيلية تحدد ببعض التفصيل انواع الاسلحة والقوات التي تراها الحكومة الاسرائيلية غير مقبولة في التدخل السوري في لبنان. وأشارت خصوصاً الى دخول سابق لوحدات من المشاة تفوق الكتيبة اضافة الى القوات التي كانت موجودة سابقاً في لبنان، مما يعني انه جرى التغاضي اسرائيلياً عن بعض القوات السورية التي دخلت لبنان. الا ان المذكرة اوضحت "ان اسرائيل لن تتسامح بتحريك القوات السورية ابعد من منطقة تبعد عشرة كيلومترات الى الجنوب من محور دمشق – بيروت. وكان هذا "الخط الاحمر" الشهير الذي حدد عملياً الاتفاق الضمني بين الاسرائيليين والسوريين على نطاق نفوذهما في لبنان، وهو الاتفاق الذي نشأ ضمنياً واستمر ضمنياً. واصر الاسرائيليون على ان اؤكد لهم خطياً ان كل هذه المعلومات جاءت بناء على اسئلة حتى لا يساء فهمها او يساء تفسيرها على انها موجبات قانونية قد تستغل في بعض السياسات المحلية.

لقد بات واضحا ان مصالح سوريا ورغبتها في السيطرة على الوضع اللبناني، والامساك بالورقة الفلسطينية قد دفعتها لارسال قواتها الى لبنان والتي جاء اجتياح ١٩٨٢، اي بعد ٦ سنوات من الدخول السوري، واخرج منظمة التحرير من بيروت الى تونس فمدريد، فأوسلو وصولا الى الحكم الذاتي فالانتفاضة المستمرة منذ ستة ايام في الضفة الغربية.

نعود الى الداخل اللبناني والقنبلة التي فجرها بيان المطارنة الموارنة الشهر الماضي والذي لا يزال يثير ضجة في كل الاوساط، لنقول ان سوريا لم تبق جيشها في لبنان، خلافا لاتفاق الطائف فحسب، انما هي اخلت بالتزاماتها السياسية حيال هذا الاتفاق وازاء اللبنانيين الذين ارتضوا بالتنازل موقتا عن القرار لدمشق في مقابل مساعدتها لهم على استعادة وحدتهم، من دون ان ننكر على دمشق فضلها في المحافظة على المؤسسات. اما لماذا لم تساعد دمشق اللبنانيين على استعادة وحدتهم، من طريق المصالحة الوطنية وقيام حكومة اتحاد وطني تطرح تنفيذ الطائف نصا وروحا، فلاقتناعها بأن اللبنانيين ما ان يتوحدوا مجددا حتى يطالبوا باعادة تموضع القوات السورية تمهيدا لخروج هذه القوات من لبنان، وامساكهم مجددا بقرارهم الحر وبسطهم السيادة على التراب الوطني كاملا بواسطة القوى الشرعية اللبنانية دون سواها.

وقد يكون محقاً الرئيس المصري حسني مبارك عندما قال ان الوجود العسكري السوري في لبنان هو عنصر توازن، لسبب بسيط هو ان السوريين اخلوا بواجباتهم طوال السنين العشر الماضية منذ اتفاق الطائف وابقوا اللبنانيين متباعدين، وحالوا دون قيام سلطة وطنية حقيقية تنبثق من مجلس نواب منتخب ديموقراطيا وتتمثل فيه كل التيارات. لذلك فضلت سوريا ان تكون لها ادوات تابعة في لبنان لا قيادات حرة ونزيهة.

وهذه الادوات التي صمتت حيال المطالبة بتصحيح العلاقات مع سوريا ومصارحتها لاخراج جيشها من لبنان لاراحة الوضع السياسي والاقتصادي وحتى النفسي، تمهيدا لاعادة اجتذاب الاستثمارات – هذه الادوات الصامتة هي تلك التي عناها البطريرك الارثوذكسي اغناطيوس الرابع عندما قال ان البطريرك الماروني والمطارنة تكلموا عما تكلموه "لان النواب ساكتون". وقد تجلى الشرخ الحاصل في البلاد، بسبب عدم وفاء سوريا بالتزامها المساعدة في اعادة توحيد اللبنانيين، ان مجلس المفتين قد اجتمع امس لدعم نضال الفلسطينيين في الاراضي المحتلة، كأن المعركة هناك هي معركة المسلمين ضد الاسرائيليين في حين كان المطلوب قمة روحية مسيحية – اسلامية تعبىء قوى الفاتيكان ومكة والقدس والعالمين المسيحي والاسلامي وراء الانتفاضة المقدسية.

في ازاء هذا التفسخ المذهبي، نتطلع الى المانيا التي توحدت قبل ١٠ سنين وسقط حائط برلين متزامناً مع اتفاق الطائف، علماً انه كان في برلين قوات حليفة تحتلها فرنسية واميركية وبريطانية وسوفياتية، اضافة الى قرابة ٨٠٠ الف عسكري سوفياتي في ما كان يعرف بالمانيا الشرقية، وان المانيا الغربية والمانيا الشرقية توحدتا بعد خروج هذه الجيوش الجرارة منها. وساعد العالم كله في ذلك، بمن فيهم اعداء الوحدة، عندما تبين ان الوحدة ليست شأناً طبيعياً فحسب، بل هي قدر، قدر الحياة الواحدة والشعب الواحد والعيش المشترك الواحد. ونتطلع كذلك الى ما يجري في صربيا حيث فجرت الديموقراطية المدعومة من الكنيسة ضمير الشعب، ثورة اجتاحت مبنى البرلمان ليل امس احتجاجاً على الغاء نتائج الانتخابات الرئاسية وازاحة الديكتاتور ميلوسيفيتش وترئيس زعيم المعارضة.

من القدس وغزة، الى برلين وبلغراد، فالى بيروت ودمشق، ان قضية حرية الشعوب واحدة، وان لا سيادة ولا كرامة، حيث لا حرية قرار وتقرير مصير.